الإساءة إلى الأديان السماوية

- تشخيص الأسباب والصور والمعالجة الإجرائية -

بلحاج جلول
المركز الجامعي البيض

بلحاج ميلود
جامعة أبو بكر – بلقايد تلمسان

الملخص

وجد الازدراء والإساءة إلى الأديان السماوية ورموزها منذ تاريخ طويل في نصوص الديانة، وفي ممارسات المتدينين، ومواقف مخالفيها قديما وحديثا. ورغم التشريعات الكثيرة إلا أن حدوث الإساءة على فترات بغطاء حرية التعبير، يعكس ضعف الرقابة في تنفيذ تلك التشريعات. إنّ تقييد حرية التعبير بقواعد النظام العام، والأخلاق الاجتماعية وحفظ الاستقرار، وحماية العقيدة الدينية، والتعايش مع الأقليات هو الأساس المتين لذلك. وإنّ ما يتعرض له الإسلام ونبيه على أيدي بعض الإعلام والشخصيات المسيحية، والسياسيين، ينبغي التعامل معه شعبيا ورسميا بكلّ جدية وحسم دون التورط في الانفعال غير المدروس، والذي قد يكون هدفا مباشرا للسماح بهذه السلوكيات المخالفة لميثاق حقوق الإنسان والمواثيق والعهود الدولية.

الكلمات المفتاحية: ازدراء، السياسة، حرية التعبير، التعايش، الإسلام.

Abstract:

Contempt and insult to the monotheistic religions and their symbols has existed since a long history in the texts of religion, and in the practices of religious people, and the positions of their opponents, in the past and present. Despite the many legislations, the occasional occurrence of abuse under the cover of freedom of expression, reflects the weakness of oversight in the implementation of these legislations. Restricting freedom of expression by rules of public order, social morals, preservation of stability, protection of religious belief, and coexistence with minorities is the solid basis for this. What Islam and its prophet are exposed to at the hands of some Christian media and personalities, and politicians, should be dealt with publicly and officially with all seriousness and decisiveness without getting involved in the ill-considered emotion, which may be a direct goal to allow these behaviors that contravene the human rights charter and international covenants and covenant.

Key words: contempt, politics, freedom of expression, coexistence, Islam.

مقدمة: إن إحدى أهم العوائق التي تعترض حوار الأديان، خصوصا وحوار الأفكار على العموم، هي الصورة النمطية التي يحتفظ بها كل طرف للآخر، وعلى مدار القرون الطويلة كان هي بالذات التي صاغت العلاقات المتشنجة بل المتطرفة بين الأطراف الدينية. ولا شك أن أي جهد باتجاه حوار هادف وفعال يحدث القطيعة مع الماضي هي إعادة قراءة الآخر المختلف فكريا ودينيا...ويطول الحال لو ذهبنا نعتمد على الواجهات الثقافية وحدها، بل على وسائل دون أخرى. إن دراسات معمقة، وتشريعات دقيقة، إضافة إلى مواقف سياسية مسئولة ترسم حدود الإعلام، وترسم برامج التعليم...من شأنها أن تنهي حالة الانفلات التي كثيرا ما تصدر هنا أو هناك في حق دين معين أو رمز من رموزه. ومن حسن الحظ أن التشريعات موجودة، وأن تجاوزها أضحى صعبا، غير أن ضعف المراقبة كثيرا ما يعود بالمكاسب إلى خط الصفر أو دون ذلك. لأجل هذا حاولنا من خلال هذا البحث رصد أهم أسباب وصور تلك الإساءات الموجهة أساسا إلى الإسلام ونبيه، محاولين التركيز على الإجراءات العامة من سياسية وثقافية، وحوار أديان...

– **الإشكالية:** مع وجود التشريعات الرادعة عن وقوع الإساءة للأديان، إلا أن ذلك لا يقي من حدوثها متسببة في توترات متبادلة. ما هو السياق الضاغط لهذا الانفلات الفكري، وما هي سبل الحدّ منه، والوقاية من آثاره العامة؟

– **المنهج:** إن المنهج التاريخي الذي يفي برصد سياق الإساءة ابتداء من مصادرها الأولى وتشكلاتها عبر التاريخ وما آلت إليه حديثا، مع بيان الآثار المختلفة في أكثر من ميدان.

– **الأهداف:** بيان أن الإساءة سلوك مشين لا يفي بأغراض المجتمعات الحديثة التي من الضروري أن تسعى إلى التعايش، ونشر ثقافة حرية التعبير بمعناها الإيجابي، والحد من جميع أشكال التمييز على أساس الدين أو اللغة أو الجنس...وأن مجرد الانفعال غير المدروس ولو كان مبررا قد يؤدي إلى مضاعفة الأضرار الناجمة عن الإساءات مجموعة.

أولا: تمهيد.

تعاني المجتمعات الحديثة من صعوبات جمة في طريقها إلى ما رسمته من أهداف السلم والتعايش والتنمية...ولا تزال هذه المجتمعات على وصفها بالمتمدنة، والتي بلغت فيها حقوق الإنسان مستويات متقدمة، لا تزال تعاني من التورط في نفس ما تورطت فيه مجتمعات مماثلة قديمة من صعوبة القدرة على استيعاب الآخر ثقافة وسياسة...ورغم كثير من التشريعات التي أنتجها الغرب في ظروف خاصة، ونتيجة حدوث انزلاقات كبيرة إلا أنه على ما يبدو لا يزال يجد صعوبة موازية في تجسيدها بحيث تؤتي ثمارها من تحقيق أمن النسيج الاجتماعي في الدول التي تتمتع بأطياف مختلفة في الدين واللغة والتوجهات السياسية والاقتصادية...

ولعلّ إعادة النظر في الظاهر من جهة أسبابها الحقيقية وصورها المتكررة، ومن جهة التشريعات التي رصدت لمنعها أو الحدّ منها على الأقل، وإلى أي مدى تستندُ فيه على الواقع ومصالح المجتمعات بعيدا عن مزايدات خواص الإعلاميين والمثقفين... وحسابات الشخصيات الدينية العامة والسياسية الوصولية، كلّ ذلك من شأنه أن يزيدَ تركيز التشخيص والمعالجة للظاهرة في عالم أضحى الإعلام فيه يتحدى أي خصوصية مدعاة للدول وحدودها...

ثانيا : مفهوم الإساءة إلى الأديان السماوية.

مع توفر النصوص القانونية المحلية والدولية من معاهدات واتفاقيات حول منع الازدراء والإساءة للأديان، إلا أن تعريف مصطلح الإساءة والازدراء الواردين في هذه النصوص، وتبعا لذلك ما هو مستعمل في وسائل الإعلام والتعليم، ودارج في ثقافة حماية الأديان ورموزها، كل ذلك يبقى ضروريا، لا يكفي فيه مجرد التوصيف أو ذكر صور أو ألفاظ معدودة مهما كثرت. إن التحديد يَقي من شيئين الأول منهما: عدم التوسع في ذلك بما يؤدي إلى حجر الحديث عن الأديان، وثانيهما: إهمالُ عناصر أساسية لا تظهر وقت تحديد التعريف وربما كانت أكثر تأثيرا من كثير مما يمكن أن يذكر في التعريفات غير التقنية أو الشاملة.

ومن جهة أخرى فإن عدم الدقة في ذلك يؤدي إلى تجاوز الحديث عن كلّ ما هو فعلا إساءة إلى التضييق في مجال حرية النقد العلمي للمسائل والقضايا الدينية، وهو أمرٌ تكفلُه الأديان نفسها خصوصا منها الإسلام (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) [الأنبياء: 24].

ومما يجعل التعريفَ ليس أمرا سهلا هو السؤال عن معيار هذه الحماية، هل هو الرموز أم الموضوعات. وفيما يخص الرموز من هم وكم عددهم، هل هو النبي أساسا، أم الحواريون، أم بيت النبي وآله، أم البابا والحاخام، أم شيخ الإسلام مثلا...وهل هو الكتب فما هي بالضبط، أم القضايا الأساسية في كلّ دين؟ وهل هو الدين جملة أم المذهب والطائفة أيضا؟ كلّ ذلك يبقى تساؤلات من الضروري أخذها في الاعتبار، والتدقيق جيدا في الذي يعتبر منها والذي يُهدر، ثم هل يجعل ذلك مستوى واحدا أم مستويات متعددة.

وأخير هل يجري الاحتكام إلى ما يثير مشاعر الاستياء عند عموم أهل الدين، بل ولو عند فئة خاصة، وماذا لو كان أمرٌ ما يثير الاستياء عند أهل دين دون أتباع دين آخر، كتصوير الأنبياء، أو الإشارة إلى تحريف كتاب ديني مقبول عند دين دون آخر...

– **الإساءة إلى الأديان سلوك قديم:** تنشأ الصعوبات التي واجهت الأديان قديما وحديثا من طريقين: الأول منهما أن قيام معارضة شديدة لفكرة الوحي ما يتضمنه من اتصال الأرض بالسماء، وما يحرص عليه المعارضون في كل زمان من الاستقرار الاجتماعي الذي هو في صالح الفئة المتنفّذة فيهم، والتي يسميها القرآن بدقة نيابة عن الجميع (الملأ)، وعدم رغبة المعارضين في تدخل النصوص الدينية ومواقف الأنبياء في تفاصيل الحياة الاجتماعية وغيرها. وهو ما شكل تحديا كبيرا للنبي المرسل والنصوص المنزلة وللأتباع الموجودين. إن هذا الشكل من التحدي كثيرا ما أودى بحياة جماعة من الأنبياء وأتباعهم، وعرض النصوص الدينية إلى التكذيب والتزوير والإخفاء. وقد نتج مع

هذا الشكل الصارخ من المعارضة طائفة مصطلحات الإساءة والازدراء بنفس المضامين: (ساحرٌ)، (شاعر)، (مجدّف)، ومثل (هرطقة)، (كفْر)...

والطريق الثاني: من داخل الأديان نفسها من جهة اعتبار أتباعها أنّ ما هم عليه من الدين المحدّد هو الحقّ دون غيره، وينعتون بالتالي بقية الأديان بأوصاف لا تقلّ عن تصريحات الكافرين في الأديان جملة، فبينما لا ترى اليهودية المسيحية والمسيح عليه السلام غيرَ هرطقة باطلة، كذلك لا يتردد المسيحيون عن وصف الإسلام ونبيه محمد عليه السلام بنفس الحكم والمصطلح والتقييم. وبينما يتحفظ الإسلام في ذلك من أن أصول الديانتين المذكورتين صحيحة النسبة إلى موسى وعيسى عليهما السلام غير أنه قد مسّ نصوصَها تحريفٌ كثير وصل إلى حدّ المبادئ الأساسية. ولأجل ذلك طالب أتباعَه بالإيمان بجميع الكتب والرسل (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)[البقرة: 285].

إنّ فكرة أن أصحاب كلّ دين يرون ما هم عليه من الدين هو الحق المطلق، وما عليه سائر الأديان هو الباطل المطلق، إن هذه الفكرة نفسها تفسّر جميع ما وقع أو يتوقع من الصدامات الفكرية والحروب الدامية؛ باعتبار الأديان في قضاياها لا تكون النهايات فيها بالصحيح أو الخطأ؛ بل تكون بالحق والباطل، الإيمان أو الكفر، وبتشخيص الجزاء الأخروي أصحاب الجنة أو أهل النَّار . وهو نفس السبب الذي يجعل عداوة الآخر من صميم الدين، بل من خدمة الدين وبلوغ الدرجة فيه سواء في ميدان الفكر أو السلاح.

وواضح أن هذا هو الذي عسَّر ولا يزال من إيجاد أي أرضية حوار فضلا عن اتفاق وتوافق بين أتباع الديانات السماوية، شأن أصحاب الأفكار البشرية في أحوال كثيرة. والذي يظهر أن الأفكار البشرية من فلسفية وسياسية واقتصادية قد أصيبت بدورها بهذا العارض الطارئ كما حدث ذلك في الشيوعية والنازية، ويحدث في الديمقراطية التي تتخذ ذريعة لغزو الشعوب، وإسقاط كياناتها السياسية، وذريعة للتدخل في قضاياها الداخلية. وواضح أيضا أن الحربين العالميتين لم تكونا دينيتين بالدرجة الأولى. وعلى

فرض أن هتلر كانت دوافعه ضد اليهود دينية أو بعضها ديني فإن غزوه لروسيا وحربه لفرنسا وإنجلترا ليسا كذلك.

ونؤكد مع كاتب هذا النص حقيقة أن الإساءة قديمة ومستمرة ومن الضروري فهمها : " وهناك العديد من الآيات التي تشير إلى السلوك البشري تجاه الأنبياء، فلا يوجد نبي إلا وقد عانى الأمرين بين قومه وغيرهم إلا ما قل وندر، والإساءة إلى الأنبياء ليست أمرا جديدا في الحياة، بل هي قائمة ومتكررة منذ نوح إلى خاتم الأنبياء. ووسائلها تتغير مع العصور ووفقا لقدرات التعبير المتاحة من قول وكتابة ورسم وتصوير وأفلام، كما في عالمنا المزدحم بكثير من إمكاناتها وفنونها وأدواتها، التي يمثل الدور الأساسي فيه شبكات التواصل الاجتماعي عبر الأنترنت. ولكي يتحقق التفاعل الصحيح والمبني على المنطق العلمي والبحثي الذي يقدم الحقائق ويسندها بالحجج الكافية والمصادر الوافية، لابد من معرفة الأفكار والدوافع الكامنة في أساليب الإساءة؛ لأنها توضح الفهم العام للآخر عن الموضوع ومحاولة ربطه بالرّمز، ومعظمُه ناجم عن الأحداث القائمة في الأرض والتي تشيرُ بأصابعها إليه."[1].

– **تضمن الكتب السماوية نصوص الإساءة إلى الأديان والكراهية:** نقرأ في نصوص العهد القديم تصريحات متكررة، وتنسب بصفة صريحة إلى الكتاب المقدس بخصوص أنبياء الله العظام وإدانة شديدة لأحوالهم اتجاه المطلوب منهم، وما هو المتوقع منهم أيضا. ففي بعض النصوص نسبة كلام صريح لله تعالى هو يفضح ويشهر بأوليائه ومبعوثيه الكرام: من ذلك أنهم " ينسبون إلى الله سبحانه وتعالى وصف بعض الأنبياء بالنجاسة، فيقولون: (لأن الأنبياء والكهنة تنجسوا بل في بيتي وجدت شرهم يقول الرب...وقد رأيت في أنبياء السامرة حماقة، تنبئوا بالبعل وأضلوا شعبي إسرائيل. وفي أنبياء أورشليم رأيت ما يقشعر منه: يفسقون ويسلكون بالكذب ويشددون أيادي فاعلي الشر حتى لا يرجعوا الواحد عن الشره...هكذا قال ربّ الجنود عن الأنبياء)"[2]. وهذا

1 – سيكولوجية الإساءة للأديان والأنبياء، صادق السامرائي (www.arabpsynet.com) ص: 01.
2 – النبوة والأنبياء في العهد القديم، () ص: 39.

التصريح المنسوب للإله في حق أنبيائه ومبعوثيه، ينزع عنهم كل ثقة في أهليتهم للإقناع والاقتداء. ومن غير شك أنه قد قصد بتسجيله وتكرار ذكر ما هو شبيهه ومثيله من النصوص إلى تعويم المعاصي والمخالفات بين الناس من بني إسرائيل ومن جميع سيطالع أو يسمع هذه النصوص التي لا يتردد أصحابها في اعتبارها أو اعتبار ما فيه دينيا. ومن جهة أخرى يبرر لجميع ما عليه بنو إسرائيل من المعاصي التي كانت سائدة بينهم، فلا يبقى إذن فرق بينهم وبين غيرهم من الأمم التي يدعون الفضل عليها.

وفي نفس السياق نورد نصين واضحين حول الإساءة إلى الأنبياء في الكتاب المقدس، ففي أحدهما التصريح أن " النبي أحمق، إنسان الروح مجنون...النبي فخ صيّاد على جميع طرقه، حقد في بيت إلهه."[1]، وبوجود هذه الأوصاف يصبح لا أحد يستحق النبوة، أو أن الجميع يستحقون هذه الرتبة ولو مع ما هم عليه من قلة الديانة، وارتكاب المعاصي. وهذا السلوك اتجاه الأنبياء هو ما يفسر قلة استفادة بني إسرائيل من قوافل الأنبياء؛ إذ كان الداء فيهم متمكنا، قد عزَّ دواؤه.

وفي النص الثاني حديث تهمة لشخصية معظمة، ففيها بعد كلام متقدم " ثم ذهب شمشون إلى غزّة ورأى هنالك امرأة زانية فدخل إليها."[2]، إن هذا الذي ذكر في النص بالبرودة التي سيق بها، يوحي بسهولة ما نسب إليه، وباعتياده وأمثاله ذلك وأكثر. كما أنهم وفي الكتاب المقدس لا في غيره قد " اتهموا بعض الأنبياء بالميل إلى الأصنام بسبب حب النساء، كما نسبوا إلى سليمان عليه السلام أنه ختم عمره بعبادة الأصنام، والسحر وسيبت نساؤه دينه كذبوا (قاتَلَهُم اللهُ أنّى يُوفَكُونَ)[التوبة: 03]، إذ بالأباطيل والفواحش يتقوّلون ويتخرَّصون."[3]. فلم يبقَ للكافرين بالنبوات زيادة على ما قيلَ وسجّلَ منسوبا لله تعالى.

1 – النبوة والأنبياء في العهد القديم. ص: 31.

2 – النبوة والأنبياء في العهد القديم. ص: 31.

3 – النبوة والأنبياء في العهد القديم. ص: 31.

ومما هو في نفس السياق بصيغة التعميم، ووجد منسوبا لموسى وهو كثيرٌ، مما يتعلق أولا بعتابه لله تعالى على ما يعتبره موسى ظلما؛ حيث يُعلق المسيري على النص التالي: " ارجع عن حُمُوّ غضبك، واندم على الشر بشعبك ... فندم الربُّ على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» (خروج 12/32. 14). يُلاحَظ أن احتجاج موسى على الرب ينبع من تَصوُّر حلولي له، أي أن كلاً من الحادثة والاحتجاج عليها ينبعان من الرؤية الحلولية الكمونية نفسها."[1].

ويتعلق ثانيا بعلاقة اليهودية من سائر البشر منسوبا على موسى، " والواقع أن هذه الأسفار تنسب إلى موسى كثيراً من الأوامر الخاصة التي تحرِّض على النهب والسلب والحرق (عدد18/31)."[2]. فإذا كان في القوانين التي لا تنسب إلى دين خاص كثير من الدعوة إلى المساواة والعدالة الاجتماعية، وصيانة الكرامة الإنسانية... كالمواثيق الدولية، وميثاق حقوق الإنسان، وميثاق الأمم المتحدة...وكان في كتب الأديان ما ذكر من كراهية الآخر غير المنتمي، والدعوة إلى حربه ونهبه...أمكن أن يدعى ههنا العكس أي أن أقرب المذكورات إلى الأديان هي هذه القوانين لا النصوص المنسوبة زورا إلى موسى وغيره...

– **نصوص متبادلة في الإساءة إلى الأديان والكراهية:** نسوق ههنا نصوصا صريحة من كتب دينية تعتبر أحكاما نهائية وتوصيفا قاسيا، من منطلقات إقصائية متخلفة تحسب جميع العالم ينحسر في أتباع دين معين أو قومية محددة، وهي العقليات التي كانت سائدة في كثير من الأمم أثبت التاريخ فشلها، وغباءها.

وقد ورد في التلمود في شأن المسيحية أن يسوع المسيح مرتد عن اليهودية عابد للأوثان، وأنه مجنون وساحر، وأتباعه كفرة، وعلى اليهود تخريب كنائسهم، وهي بمقام القاذورات، والوعاظ فيها أشبه بالكلاب النابحة، وأن مريم زانية، وعلى اليهودي أن يلعن

1 – موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية عبد الوهاب المسيري (shamila) ج10/ 417.

2 – موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج10/ 371.

النصارى ثلاث مرات يوميا ...[1]. وقد قال مارتن لوثر عن القرآن: " إنه كتاب بغيض وفظيع وملعونُ، ومليءٌ بالأكاذيب والخرافات والفضائح..." [2]. وقال المستشرق كيمون في كتابه (باثولوجيا الإسلام): " إن الديانة المحمدية جذام تفشى بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتْكا ذريعا، بل هو مرض مريع وشلل عام...وما قبر محمد إلا عمود كهربائي يبعث الجنون في رؤوس المسلمين...إن الإسلام كله قائم على القسوة والفجور..وأعتقد أن من الواجب إبادة جنس المسلمين والحكم على الباقين بالأشغال الشاقة، وتدمير الكعبة ووضع قبر محمد وجثته في متحف اللوفر."[3].

– **تكريس التاريخ لظاهرة الإساءة إلى المقدسات:** وبوجود هذه النصوص ومضامينها المباشرة وبإيحاءاتها، يستمر تكريس انعكاساتها المرهقة بل المدمرة، سواء من جهة المخالفين للأديان من الملحدين أو من جهة المنتمين إليها بعقليات عنصرية، ودعاوى تمييزية، وإذا كان اليهود قد قصروا ديانتهم على من هو منهم، لا يتوسعون في ذلك؛ فإن المسيحية قد بادرت خصومها بالشمولية التي لم تقف ولا يبدو أنها ستقف عند حدود الدول والكيانات حتى بعد قيام مفهوم الدولة الحديث الذي يقوم أساسا على سيادة الدول ذات الجغرافيا، والقوميات المحددة.

وقد كان الضرر بالغا في هذين التوجهين فمن جهة تمَّ احتكار النبوات الإسرائيلية لصالح فئات بشرية خاصة، حيث حرمت سائر المساحات البشرية من نصيب الهداية في ذلك وهي تعاني هيمنة الإلحاد والكفر، بينما قامت موجة المسيحية بتوسعة مساحاتها بكل الطرق على أساس التفسير المسيحي للتاريخ، من أن موجة النبوات والحراك البشري قد انتهى عند ظهور المسيح المخلص، وانتهى بذلك أي شكل للنبوة، ولا معنى لأي فكر مستحدث...وأن ما بقي من عمر الدنيا ليس أكثر من انتظار رجوع المسيح المخلّص

---

1 – حقيقة اليهود، فؤاد بن سيد عبد الرحمان الرفاعي (دار القلم، الكويت، ط:01، 1993م). ص: 04-05.

2 – صورة الإسلام في الذات الغربي، هوبرت هيركومر (نهضة مصر، القاهرة، ط:01، 1999م) ص: 21.

3 – في مواجهة التنصير، محمد الحاج عيسى (دار الإمام مالك، الجزائر، ط:01، 2008م) ص: 46.

في حياته الثانية. كما يشير إليه النص التالي حول تبرير نظرة المسيحية للأديان: " وكان المشكل يتمحور حول إيجاد سند ديني مسيحي للإسلام. إذ إن المسيحية تعتقد أن الهدف من إرسال الأنبياء وعقائدهم منذ بدء الخليقة، ليس سوى تمهيد تدريجي لأجل بلوغ ذروة التاريخ الكوني، المتمثل بـ(التجسد الإلهي) في شخص المسيح، في حين أن محمدا ظهر في دعوته وعقيدته بعد ستة قرون من ذلك الحدث الإلهي على أنه خاتم الأنبياء والمرسلين."[1].

إنّ هذا أوجد معضلة مع أكبر الديانات بعد المسيحية، وشكل اتساع رقعتها المتزايد تحديا للمسيحية بعد ستة قرون من ظهور المسيح، وقرنين من نشأة الصيغة المسيحية المبتكرة ومشاريعها التوسعية بالعنف عبر العالم، المسيحية لا شيء غير المسيحية. نسوق هنا نصوصا تعكس صورة الإسلام ونبيه في الفكر المسيحي القديم، هذه الصورة التي لم يتغير في جوهره ولكن من وجهة نظر المسيحيين، فإنه لم يكن بمستطاع محمد أن يكون نبيا حقيقيا، أما عقيدته فهي الأخرى لا يمكن أن تكون صحيحة؛ ولهذا رأى المسيحيون في شخص محمد رجلا مرتدا أو شخصا مزيفا، لا يملك سوى الإدعاءات والأضاليل، وفي تفسيراتهم الأقل تحفظا صوّر محمد كساحر معاد للمسيح، أو حتى أنه الشيطان ذاته. وصوّر الإسلام على أنه لون جديد من الهرطقة (اليهودية أو المسيحية)، أو على أنه ضربٌ جديد من الوثنية."[2].

وواضح من هذا أن " التصورات الأوروبية عن الإسلام تشكلت...على خلفية التفسير المسيحي الشرقي للعقيدة الإسلامية." [3]. وهكذا لم يتم بذل أي جهد نقدي لما جاءت به الديانة المحمدية خارج سياق الفلسفة الجديدة للمسيحية والتي لم يوافقها عليها حتى بقية بني إسرائيل من اليهود تحديدا، بل وربما طائفة من المسيحيين أنفسهم في فترات تاريخية سابقة. والذي يظهر أن عناصر وسيطة كانت تهتم باختزال المسافة بين

1 – الإسلام والمسيحية، أليكسي جورافسكي. ص:69.

2 – الإسلام والمسيحية، أليكسي جورافسكي (المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ط:01، 1996م) ص:70.

3 – الإسلام والمسيحية. ص:70.

الديانة الإسلامية وسائر الشرائح اليهودية والمسيحية خصوصا. بحث بقيت الصورة النمطية المكرسة للعرب وما هم عليه من الدين في كتابات المتقدمين من رجال المسيحية، والتي " أشارت بعض دراساتهم الجغرافية / الوصفية إلى أعراب شبه الجزيرة العربية، وكأنهم هم العربُ فقط، الذين يقيمون حياتهم ومعيشتهم على النهب واللصوصية. وظهور الدين الإسلامي كعقيدة توحيدية جديدة لم يلحظ إلا بصعوبة في أوربا."[1].

ولم تتغير هذه الصورة رغم قرون الاتصال المباشر الذي حصر للحضارة الإسلامية بالدول والكيانات والشعوب المسيحية، واليهودية... وما تم استنساخه من منجزات الحضارة الإسلامية، وتراثها الخالد، ورغم إشادات الكثير من المنصفين والمخالفين بذلك. ورغم الاتصالات التي تتم ومنذ بدايات عصر النهضة الإسلامي؛ مما يؤكد أن الواقع الغربي يشكو انفصاما ما بين الغرب العلماني، وسلطة الكنيسة الشكلية التي تفتعل الخصومات والتصريحات الانفعالية اتجاه ما تراه من تمدد الحالة الإسلامية داخل الغرب نفسه.

– **الحروب الصليبية:** مثَّلت الحروب الصليبية طويلة الأمد انعكاسا واضحا لمدى التناقض الحاصل في العلاقة بين المسيحية والإسلام، فإذا كانت هذه الحروب ذات أسباب مباشرة في استرداد ما تمَّ أخذه باسم الفتح الإسلامي أو الغزو العربي كما يصطلح عليه عند الأوربيين من المدن والبلاد كالأندلس وصقلية، والقدس وحدود بلاد الشام... فإنّ الصبغة التي لم تفارق تلك الحركات الهائلة هي أنها حروب دينية بشعاراتها، وتصريحاتها...ووقودها المحرّك عبر الدعوة إليها في كامل أوربا المسيحية. وإذا كان المسلمون يرونها حروب حدود جغرافية فإنها كذلك ولكنها ذات أبعاد دينية تجاوزت الحدود السياسية إلى الانتقام...وإن من يطالع أدبيات الكنيسة في تلك العصور يدرك كيف كان يتم تصوير الإسلام ونبيه وعموم العرب والمسلمين، وكيف كان يعتبر الإسلام أساسا لتلك الحروب الدائرة.

1 – الإسلام والمسيحية. ص:69. نقلا عن كتاب الوصف الكامل للأرض وشعوبها.

وفي النص التالي وهو ينتمي إلى ترك الفترة الطويلة والعصيبة ما يشير إلى عدم استعداد رجال الكنيسة وبدعم من الملكية السائدة يومها لأي تغيير أو تقبل " وقد صور النبي محمد أحيانا وكأنه كان كاردينلا للكنيسة الرومانية – الكاثوليكية. وكانوا يطلقون عليه اسم (ماهُومَتْ) أو (مَومَتْ) أو(موميتُو)، الذي بعد أن قام بمحاولة فاشلة للجلوس على كرسي البابوية، هرب إلى شبه الجزيرة العربية، وبسبب تلك العقدة (عقدة الإحباط والفشل)، ومن أجل الثأر والانتقام أسس ديانته الجديدة."[1].

وفي صورة أكثر راديكالية مثيرة للجدل عن مستوى وعي الشعوب الأوربية يومها، وكيف كانت وساطة رجال الدين كبيرة في ترجمة الأفكار المعادية إلى أحكام جاهزة يجري الترويج لها بكثافة، وتقبلها باستمرار. حيث قدمت صورة الحمامة كرمز لروح القدس في المسيحية، في سياق توظيفي سلبي خلال الحديث عن الإسلام ونبيه، " حيث نشرت على نطاق واسع في أوربا الحكاية الأسطورية، القائلة إن محمدا درب الحمامة لتنقر حبوب القمح من أذنه، وبذلك أقنع العرب، أن تلك الحمامة هي رسول روح القدس الذي كان يبلغه الوحي الإلهي. وعممت هذه الحكاية المختلقة إلى درجة أن الشاعر الإنجليزي جون ليدهيت (15م)، الذي سيرة لحياة محمد، سمى لون تلك الحمامة حليبا– أبيض."[2]. وهكذا أعاد كبار الفنانين الصورة والحكم الجاهز بسبب أو بآخر، بنفس مستوى ما كان يعيده البابا الكبير، والإنسان العادي المستدرج.

ومع أن كثير من الأوربيين قد اطلعوا على الإسلام، بل وخالطوهم في البلاد المفتوحة وما جاورها بشكل مباشر، إلا أن الخلفية الدينية لم تتغير، وعمل رجال الكنيسة فيما قرب وبعد من أوربا، ومع السياسيين والقادة العسكريين ظل يرفض كل شكل من أشكال التفهم، وإعادة قراءة مع حدث...بل ظلت الصورة النمطية قائمة مع استنكار كبير لما كان يحدث من استلهام هذه الحضارة، والولوع بأدبياتها في زمن نهضتها.

1 – مونتغمري واط، تأثير الإسلام في أوربا. ص: 99–103.

2 – الإسلام والمسيحية. ص: 76.

- **الإستعمار الحديث:** ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن هذه الروح العدائية المبالغ فيها، والصورة النمطية للإسلام ونبيه عليه السلام غير القابلة للتغيير عبر القرون، رغم ما تم وعلى ميادين كثيرة من التواصل والتأثير الحضاري، ووصول رحالين أوربيين إلا بلاد العرب والمسلمين وتدوين الصدمة الهائلة...إلا أن هيمنة رجال الكنيسة ورصيد التضليل القديم لم يسمح بمرور أكثر من الإنجازات المادية لذلك التواصل بعيدا عن مسائل العقيدة...وفي سياق الإستعمار فإن كثيرا من التصريحات المسيحية قد صاحبت المحاولات الاستعمارية الأولى، بل وشاركت كثيرٌ من الرموز الدينية المسيحية في تسهيل ذلك والدعوة والحشد له، ومباركته، ونسبة عناوينه العامة للانتقام والتطهير المسيحي لبلاد الوثنية وأعداء المسيح والبربرية...ونحن نسوق النص التالي الذي يبرر الاستعمار الفرنسي وموقف الكنيسة أول حال ثم تطور ذلك إلى الدعم المباشر: " وقالوا للبابا أنهم سيرفعون الصليب ويخفضون الهلال في الجزائر."[1]. فكان ذلك كافيا لتجديد رضاه عن مثل هذا الغزو غير المبرر. ودلت حماسة الجنود وجموع القادمين للغزو في رأي البعض بسبب أنهم " كانوا متحمسين للغزو وقطع البحر لمحاربة الترك وتخليص المسيحيين منهم. وقد استخدمت مختلف الوسائل نيران التعصب الديني في هؤلاء الشباب الجهلة، حتى أنهم كانوا يهرعون إلى الانضمام للحرب، تماما كما فعل أجدادهم من قبل أثناء الحروب المسيحية." [2]. في حين أنه في حرب التحرير بعد 1954م استنكر بعض شخصيات فرنسا الدينية على المجاهدين الجزائريين تسمية ثورتهم بأنها جهاد أي منطلق ديني، كما تفيده العبارة التالية:" في حين اضطر مطران الجزائر للتصريح عدة مرات، معلقا على أحداث حرب التحرير الوطني الجزائري (من 1954-1962م) بأنه يدين المحاولات الرامية لإضفاء الصبغة الدينية على تلك المعارك المقاومة للوجود الفرنسي."[3].

ثالثا: - دور السياسة في المشكلة والحلّ.

1 - الحركة الوطنية، بلقاسم سعد الله (دار البصائر، الجزائر، ط:01، 2009م) ج1/ 16.

2 - الحركة الوطنية، المرجع نفسه. ج1/ 21.

3 - L.E. Duval. Messages de paix(Paris.1962)

باعتبار الدولة شكلا من أشكال التنظيم الاجتماعي الذي تحكم فيه طائفة نيابة عن المجتمع وبتفويض منه، كما هو المفترض بما يحقَّق مصلحته، ويحفظ النظام فيه، وبالتالي الأمن والاستقرار الاجتماعي، ويحافظ على رصيد حقوق الإنسان ويوازن بينها جميعا عند التعارض بغرض تحقيقها. إن ذلك موكول للدولة أولا بما لها من السلطة المتعددة، ومن آليات الضبط سواء عبر التشريع أو القضاء، أو الإعلام والتعليم... ذلك أن أي استبعاد للدولة وإمكاناتها من شأنه أن يحجم أي دور لغيره من أطياف المجتمع المدني الدينية أو العلمانية...

وفي خصوص موضوع الإساءة التي نحن بصدد تشخيص أسبابها وصورها، فإنّ أيَّ معالجة يجب أن تبدأ أولا من الوقاية من وقوع الإساءة المتفق على تعريفها والتي كانت تسمى في المسيحية " تجديفا "، والسعي إلى تقليل أضرارها بعد الوقوع ومن ثم الحرص على أن يكون الانفعال أي رد الفعل معقولا لا يصل درجة العنف التي ربما خرجت عن سيطرة الدولة نفسها. وهذا الموقف المتعقل هو الذي نرشح ضرورة التواصي على اتخاذه تفويتا للفرص على الأطراف المغرضة: " ومواجهة الإساءات لا يجوز أن تكون انفعالية وسلبية، ووفقا لما هو مخطط له، ويراد أن تحققه الإساءة، لكي يتم استثمارها في مشروعات أخرى ذات ضرر كبير تتناسب والعصر الذي تحصل فيه. ولابد من الفهم الواسع والدقيق للوصول إلى التفاعل المتناسب مع الفعل، لتصحيحه وإرشاده وتوجيهه وتثقيفه، وتغيير سلبية اقترابه ووعيه."[1]. وقد شاهدنا موجات الاستنكار الإسلامي أعقاب حدوث إساءات مختلفة في الدانمارك وهولندة ...وكيف عبَّرت من وحي فطرتها عن غضبها، وكيف تمّ استغلال تلك الغضبة البريئة لصالح المغرضين، والمتطاولين على الديانات حتى داخل الصف العربي والمسلم عموما. حيث جرى التركيز على ردّة الفعل بالإدانة والتشويه أكثر من إدانة الفعل المغْرض الذي ليس له ما يبرره غير غطرسة السياسة والإعلام، والاستهتار بحقوق المواطنة...

1 – سيكولوجية الإساءة للأديان والأنبياء (www.arabpsynet.com) ص: 02.

– **الأديان مكسب إنساني:** إن وجود الأديان السماوية قضية واقع لا تقبل التجاوز فقد وجد أنبياء على مدار التاريخ، بعثوا في أقوام وأمم مختلفة في كافة بقاع الأرض (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ)[فاطر: 24]، وقوله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[إبراهيم: 4]. وقد تناقلت الأمم أخبار تلك الهدايات المتكاملة لوحدة مصدرها من جهة، ومن جهة ثانية لوجود كثير من النصوص الصحيحة في الذي وصل إلينا منها كما هو في التّوراة والإنجيل، ونصُّ القرآن كاملا كما هو اعتقاد المسلمين. إن بقايا كثير من الأفكار والمبادئ البشرية أمكن نسبتها بعد البحث إلى مفكرين وفلاسفة يعتقد أنهم كانوا أنبياء أو من كبار أتباع الأنبياء؛ نظرا للتجانس الكبير في موروث الحكمة الذي أمكن وضعه بجانب كثير من النصوص الدينية الصحيحة، فبدا متقاربا بل كثير التطابق.

وإذا كانت بعض النصوص أو الفلسفات قدمت بعض الأديان أو المبادئ المنسوبة للأديان بالشكل الذي لم يعترف به فيما بعدُ من بقية الأديان؛ فإنَّ ذلك ليس مبررا لإلغائها الدين الذي انتسبت إليه، ولا هو مبرر للحمل على جملة الأديان، والتنكيل بالأتباع عبر العصور أو تحريف النصوص الخاصة...

ويكفي أن أصحاب كل دين يرون أنهم على صواب في ما يعتقدون، وأن ما عندهم من كتاب هو من التصديق لديهم بمكان، وخصوصا إذا كانوا لا يلزمون به غيرهم. وإنما يكفي الحوار الدائم، وحرية النقد العلمي بدون الدخول في خانة الإساءة أو الازدراء. ولا شك أن علاقات الأديان المتوترة لم تعط فرصا كثيرة للاطلاع على ما عند الآخر بطريق علمي رصين أو محاولات إيجاد أرضية اتفاق يتم من خلالها العمل المشترك على تقديم الهداية السماوية إلى من اختار أن ينتمي إليه وأن ينتفع بتوجيهاتها.

ومع اعتقادنا أن في الأديان على اختلافها هدايات جيدة تخص أتباعها على الأقل ومن يختار الاعتقاد فيها، والتطابق سلوكيا مع نصوصها؛ فإن عملا كثيرا لا يزال في انتظار البشرية لتنصف الأديان من بعضها، وتصل عجلة البحث والنقد إلى مثل ما

وصل إليها هذا الباحث في شأن الإسلام والقرآن خصوصا: " ولقد آمن بالقرآن كثير من رجال العلم والفكر في كل عصر من العصور الماضية وفي هذا العصر الذي نعيش فيه؛ كما آمن به من لا يحصون كثرة من الناس على اختلاف حظوظهم من العقل والفكر؛ وما ذلك إلا لأنه جاء بالعقيدة الحقّة الواضحة التي يتقبلها الجميع. أسهل العقائد، وأقلها غموضا، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحضهم على إتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين (إذا استثنينا ما كان يقترفه بعضُ الخلفاء المتأخرين) درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض. ولقد علم الإسلام الناس أن يواجهوا صعاب الحياة، ويتحملوا قيودها، بلا شكوى ولا ملل، وبعثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله. وقد عرَّف الدين وحدده تحديداً لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه من قبوله."[1].

إن هذا الموقف المنصف سهل من جهة البحث العلمي، غير أن رصيد التحامل على الأديان جملة وعلى الإسلام بالخصوص من جهة رجال المسيحية لا يزال يعيق أي شكل من التعاطي مع الحقائق لصالح المجموع البشري، من منطلق الحرية المبنية أساسا على الوعي المباشر بالأديان على التفصيل دون التعرض للتضليل.

وفيما يتعلق بدين إبراهيم عليه السلام وما حمله للبشرية في زمانه وفيما بعده من الأزمنة من ألوان الهداية الفارقة بين الحق والضلال، وبين الخير والشر. إن ذلك قد تكرر في كل نبوة لاحقة بل في كل فكر إنساني أصيل. قال في شأن صحف إبراهيم: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)[الأعلى: 14 – 19]. إن جميع

1 – قصة الحضارة، ول ديورانت (دار الجيل، لبنان، ط:01، 1988م) ج 13/ 69.

الفلسفات لا تعدو شرح ما تضمنته هذه الهداية فيما يتعلق بصلاح النفس البشرية كهدف أسمى أعيا المصلحين علاجه.

كما مثل الوحي إلى كليم الله موسى عليه السلام ومن تلاه من أنبياء بني إسرائيل من الشجرة المباركة، ترسيخا لما في صحف الخليل من ألوان الهداة، والتنوير في شأن التوراة نطالع قوله تعالى" (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)[المائدة: 44]. فلا يلزم من ذكرتهم الآية المباركة أن لم يؤمن غيرهم بها، ولم يحتكم إليها بعد أن أساء فهما، وتحامل في المعارضة لها... ولو كان أولئك من بني إسرائيل أنفسهم، ولا مجال لتراجع عن هدايتها ولو قل الأتباع وكثرت المهاترات.

وكذلك نطالع في الإنجيل بعد قرون خلت من زمان موسى وما ورثه بني إسرائيل من مكتوب الوحي، وتوجيهات الرسالة السماوية، بعد أن اقتضى تغير بعض ما فيه، وتنصل كثير من الأتباع من التزاماتهم اتجاهها، اقتضى ذلك تجديد عهدها بهداية الناس وتقديم نصوص الهداية السماوية غضة طرية للنفع العام، ولأجل استنقاذ ما أمكن من موجه الضلال حل محل المساحات التي انحسرت عنها الرسالات السماوية بأسباب تعود للأتباع تماما كما تعود إلى الجو العام الفاسد. ففي شأن الإنجيل وما فيه نقرأ (وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (46) وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[المائدة: 46، 47].

– **دعم نجاح حوار الأديان:** هنالك أكثر من سبب يبرر دعم حوار ناجح بين الأديان السماوية، وليس مجرد حصول حوار فإن هذا قد حدث عبر عقود، وتجاوز التمهيدات والمجاملات إلى حوار يؤسس لعلاقات جديدة أكثر عمقا، وفعالية، بإمكانها وحدها أن تحدث هوة سحيقة بين الأمل المنشود، والواقع القديم المأسوي الذي دمغ حياة المتدينين ومشاريعهم بالعنف والاحتراف، والاستهتار بالحقائق وجرف الأبرياء في أتون

حرب لا ناقة لهم فيها وجمل في كثير من الأحيان. إن الوعي بالآخر أصبح اليوم أكثر من ضروري بل وهو ممكن إلى درجات بعيدة، فقد تقاربتْ الشعوب في مجالات عديدة، ووجدت أقليات كثيرة مختلفة في جميع دول العالم، ووجدت سفارات للدول متبادلة. وتوفّرت المراجع التي تحقق معرفة مباشرة، وأزيلت كثير من الوسائط المضللة، أو المحدودة في أكثر الأحيان.

ونحن نقدم شواهد على ذلك أواخر القرن الماضي بالضبط، وفي النصف الأخير منه؛ فقد أعيد رسم صورة المتدين المخالف كاليهودي، وصورة المسلم، وحصلت تصريحات من الفاتيكان أكثر تقدمية، كما جمعت مجالس الحوار أطراف فكرية وسياسية من مستوى عال، وهو ما يفسر تزايد فكرة تقبل الآخر المختلف لولا ما تخلل ذلك من التوترات المتبادلة، والتي لها ما يبررها من رصيد الصور المشوهة، والكراهية المتوارثة. على أن ذلك قد ساده شيء من التحفظ عكَسَ صعوبة التحوّل، كما عكسَ طبيعة العمل المطلوب، ومدى ثقل مسؤولية الأجيال اتجاه العلاقات بين الأديان السماوية، والبلوغ بها إلى ما هو المأمول من التكامل والتفهم والثقة والتحفظ...

– **التوافق على نبذ التعصب والطائفية:** ونحن نضربُ هذا المثال المحتذى في نجاعة الإجراءات الحازمة التي تضع حدا للتجاوزات على الخصوصيات الدينية، بل وعلى خصوص الشخصية اليهودية. إنّ ذلك قد أعفى اليهود من التمييز التاريخي الذي في تقديرهم على الأقل قد عرضهم إلى كثير من المعاناة والإساءة. إن مثل هذا الأجراء كلما كان معقولا ومرفوقا بثقافة واعية تبين وجه المصلحة فيه كلما كان مثالا يحتذى يراه الباحث، مما يضع حدا بين حرية النقد العلمي المكفولة شرعيا وقانونيا، وبين التطاول المجاني على الرموز والديانات والتي تمثل حريات فردية وجماعية لآخرين، كما تمثل حرية تعبير أيضا. ونحن نشير إلى أن " منظمة يهودية أمريكية تأسَّست عام 1913م، لتكون ذراع بناي بريت في محاربة معاداة اليهود ومحاربة التمييز الديني والعنصري في الولايات المتحدة. وقد بذلت المنظمة جهودها منذ تأسيسها في إصدار التشريعات التي تحمي اليهود من التمييز أو الإساءة إلى حقوقهم المدنية، سواء في مجالات التعليم أو

العمل أو السكن، وعملت أيضاً على محاربة السخرية مما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» في المسارح ووسائل الإعلام، وكذلك محاربة التنظيمات والحركات العنصرية في الولايات المتحدة. واهتمت المنظمة أيضاً بتنمية العلاقات اليهودية . المسيحية وتنمية العلاقات بين اليهود والسود."[1]. ولا شك أن الأهداف الأخيرة تزيل كثيرا من الحساسيات وما أمكن أن يفهم منه التسلط على رقاب الناس بالمنع والملاحقة.

إنّ التطبيق الجيد لمثل هذه الإجراءات السياسية هو الذي يُعفي المجتمعات من موجات تذمّر وعنف مفاجئ يذهب بجميع ما أمكن تحقيقه من الحوار والتعايش، لصالح نزغات فردية ليس وراءها غير الاستهتار والاستغلال السياسي أو الديني أيضا. وقد حدثَ الأول في تصريح الرئيس الفرنسي الأخير ماكرون، بينما حدث الثاني في تصريح البابا المسيء للإسلام ونبيه عليه السلام.

رابعا: الإعلام والتعليم ودورهما في تقدير الرموز الدينية وحدود الحريات.

– **الإعلام بين حرية الانتقاد العلمي وآفة التشهير والسخرية:** تقدم أن الحق في حرية التعبير حق أساسي تنبني عليه سائر الحقوق، وأن حقوق الإنسان عالمية، وأصلية أي قبل قيام الدولة، ولا تقبل التجزئة. هذا من المفروض أن يكون أمرا متفقا عليه، غير أن تقييدات وردت على هذا الحق (ضرورية وفي مجتمع ديمقراطي)، وهذا يعني أن الإعلام نفسه ينبغي أن يتبنى تلك التقييدات الضرورية باعتباره تخدم الصالح العام، والسلام والاستقرار، وتمنع حدوث الكراهية، وتجاوز حقوق الأقليات بما فيها الدينية. ونحن نسوق هذا النص الذي يضيف منطلقات أخرى قد تكون اختيارية لصالح الفرد أو المجتمع، ففيه أنه " يضاف إلى القيود اللوائحية المفروضة على حرية التعبير التي ذكرناها آنفا قيود أخرى مثل قواعد أخلاقيات الصحافة، أو أن يختار بعض الأفراد أو الجماعات بإرادتهم ألا يستخدموا حرية التعبير. وعلى الرغم من أن هذا الاختيار (سواء باستخدام حرية التعبير أو عدم استخدامها) عادة ما يكون اختيارا حدسيا بالسليقة؛ فإنه يعود إلى عدد من الأسباب المختلفة التي تتنوع ما بين الخوف من التبعات السلبية

1 – موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية 17/ 489.

المترتبة على التعبير من ناحية، واحترام مشاعر الآخر وديانته، وتراثه وماضيه من ناحية أخرى."[1]. وهذا لا شكّ موجودٌ في كثير من الدول، ومراعاته ضرورية، وخصوصا أن الإعلام أصبح عالميا، ولا مجال فيه للتجاوزات التي قد تنسب إلى بلد دون آخر، والأقليات في البلد الواحد لها ما يسندها في سائر الدول ومنها بلدانها الأصلية.

إن هذا يحتّم أن ينتقل الإعلام من مجرد ناقل للأفكار والآراء إلى موجّه لها بما يضمن تحقيق الحدود العليا لحرية التعبير أمام الواجب من التحفظات القانونية والأخلاقية. ومن جهة أخرى فإنّ سياق السماح بالتجديف والإساءة والازدراء بالأديان ورموزها إذا كان له ما يبرره في أوروبا كما يدلّ عليه السياق التاريخي، وكان الإعلام في حلّ من أمره قبل العولمة التي شهدتها وسائل الإعلام، فإنّ ذلك لا يبرر الإساءة لأديان أخرى ورموز مخالفة لمجرد الاستناد إلى الوضع الأول. وأيضا فإنه ومهما يكن مسموحا حسب سياق آخر من الرؤية النمطية للأوروبي حول الإسلام والمسلمين، فإنّ وجود الأقليات التي تحاول الاندماج ولو النسبي في مجتمعاتها الجديدة لا ينبغي أن يشجع على الاستمرار في الاستناد إلى الأوضاع الإعلامية السائدة...وترك مراعاة الظروف المستجدة الحرجة.

وأكثر من هذا وذاك فلا ينبغي للإعلام أن يكون الجواد السهل الذي يركبه السياسي وهو يحاول أن يضاعف مكاسبه الانتخابية والسياسية بافتعال تصريحات ضد أطراف أخرى، استرضاء لشرائح يستهويها هذا الاستفزاز مثلما فعل ماكرون الرئيس الفرنسي مؤخرا، أو مثلما صرح البابا قبله لمكاسب ووضعيات منها الديني ومنها السياسي.

كما أن خطر الإعلام يكون بالترويج لدود الفعل عن الإساءة، وما يتم بالقصد استهدافه عن طريق التعميم، والتركيز على إلصاق العنف المسجل في الانفعال في الدين ذاته، وتتم فكرة أن الأديان لا تتناسب والحياة، والمعاصرة منها بالخصوص. وقد قدم

1 – مقال: حرية التعبير وازدراء الأديان في القانون الدانماركي (المعهد الدانماركي لحقوق الإنسان، 2006م) ص: 43.

الباحث السامرائي ملاحظة حول ذلك محذرا من الانجرار بردود الأفعال العنيفة لتحقيق ما يهدف إليه بالإساءة وتكرارها، فقد قال عن العنف: " فهو أكبر من أي الرسوم والأفلام والسلوكيات المقيتة في إساءته، فالمناهج الظلامية الدامية التي تتحرك تحت شعارات دينية هي الأكثر إساءة من غيرها. فربط الدين بالعنف أعظم إساءة إلى الدين السمح الرحيم. ومحاولة لإقناع الناس بأن لا وسيلة للتعبير عن الدين إلا بأساليب العنف المتنوعة، من أجل تأكيد الصورة السلبية وتوفير المسوغات اللازمة للرد وإدانة دور الدين في الحياة، وتحويله إلى مصدر للرعب الشديد لأنه عند المتلقي قد ارتبط بما يؤكد ذلك من أحداث انفعالية قاسية يصعب فصله عنها."[1]. ومع تحفّظنا من حقيقة نسبة العنف دائما إلى مصدره المشار إليه، فإن كثيرا منه مصطنع من طرف الدوائر الدولية المستفيدة. كما نتفهم ضرورة أن يكون ردُّ الفعل قويا في غير عنف وإلا لا يلتفت إليه. وبالرغم من ذلك فإنّ ما يشير إليه الباحث من الإستراتيجية المدروسة في ردود الأفعال شيء يمليه التعقل والظروف الدولية، وحماية الأقليات بالغرب، وفتح أبواب تفاهمات مباشرة...بديلا عن التشنجات المتبادلة مغرضة كانت أمْ بريئة.

– **التعليم ودوره في ذلك احترام الرموز الدينية والإنسانية:** وفي سياق الدولة دائما واستكمالا لسائر أدوات الوقاية والعلاج للإساءة والازدراء، وتتميما لجهود الدولة في مجال الإعلام، وما ينبغي فيه من الضبط تحت مبدأ " الضروري في المجتمع الديمقراطي"، حتى لا يستغل ذلك للتوسع في منع حرية التعبير في غير المجال الحرج المشار إليه. أقول إضافة إلى جهود الإعلام يأتي التعليم في مرتبة تالية من حيث صياغة البرامج اللازمة لعلاج الظاهرة، والوقاية من وقوعها، وتعليم الأجيال ثقافة التسامح، والتعايش، وترك التعسف في استعمال حرية التعبير. زيادة إلى ضرورة تعليم مبادئ الأديان وتقدير أدوارها العامة والخاصة.

إن الذي يبرر هذا الدور وهو ما نراه واضحا من ظاهرة الجهل القديم الدائم والمتعسف للإسلام كدين، ودوره كبرنامج إصلاح، وحاجة البشرية إليه، ذلك أن الإسلام

1 – سيكولوجية الإساءة للأديان والأنبياء، صادق السامرائي (www.arabpsynet.com) ص: 01.

مثّل وباستمرار لغزا مجهولا " بالنسبة للآخر بسبب العزلة الطويلة، ولا يراد الاقتراب منه ومعرفته والكشف عن أسراره ومعانيه، وقيمه وأخلاقه. وقد اتصل في لا وعْيه بالخطر؛ لأنّ الحضارة التي أنتجها قد هيمنتْ على مدى قرون عديدة، فلم تسبق هذا التواصل الحضاري عقيدةٌ من قبل. ويبدو أن العوامل التاريخية ومخلفاتها قد ساهمت في تجاهل وجهل وتقليل أهميته ودوره في الحياة، وإنكاره لكي يتبدد الخوف من الخطر ويتحقق الاستقرار. والجهل هو السبب الأولُ والأساس الباعث للمواقف السلبية؛ لأنّه يكون محفوفا بأطر انفعالية متراكمة ومزمنة."[1].

خامسا: – دور التشريع والقضاء في حماية الحريات والمقدسات.

– **فلسفة الحرية عبر التاريخ:** من الصعب تعريف الحرية بشمل تقني، إن تنوعها، وحدودها عند من يدخل ذلك في التعريف... يجعل الأمر عسيرا من الناحية التقنية، غير أن تحديد أنواعها ربما كان أيسر، ففي المعجم الفلسفي أن الحرية السياسية والاجتماعية: " هي التي يستطيع فيها الفرد أن يفعل ما يريده في حدود القانون، ودون أن يسيءَ إلى غيره، وأخصُّ الحريات السياسية: حرية الرأي والقول والعمل والاعتقاد. وهي مقيّدة دائما بنظام المجتمع وحقوق الآخرين، وليس ثمة حرية مطلقة."[2]. وكذلك يقال في الحرية بمفهومها السيكولوجي فإن الإنسان يشعر بمقادير نفسية كبيرة من الإرادة الحرية تماما كما يشعر ببعض القيود في ذلك أيضا.

والتركيز على الحرية والإشادة بها، واعتبارها من الفضائل الأصلية، وأساسا لتقويم السلوك الإنساني مما زخر به تراث الفلاسفة والأدباء والشعراء والخياليون، وأصحاب الملاحم...والحمل على العبودية والخضوع للآخر، وما يستحقه الشرف والرجولة بل الكرامة الإنسانية له نصيب وافر في الحكم القديمة بل وفي نصوص الكتب السماوية؛ لما يترتب عليه من المسؤوليات الجسيمة.

---

1 – سيكولوجية الإساءة للأديان والأنبياء. ص: 03.

2 – المعجم الفلسفي، إشراف: إبراهيم مدكور (الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط:01، 1983م) ص: 71.

ولعل شيئا لم تفقده البشرية، ونالتها المعاناة بسبب فقده لم يكن أكثر ولا أهم من الحرية، ففي تاريخ الأنبياء مثلا يقاسي الرسل وأتباعهم ومن ورائهم أمم كثيرة من تكبير الإرادة، ومحاولة قسْر المجموعات الإنسانية على الخضوع لإرادة إنسانية أعلى كإرادة الملوك والسلاطين، والأنظمة الفاشية، والنازية...وجميع أشكال استلاب الحرية تحت أي عنوان كان ذلك.

ولأجل هذا جاء ميثاق حقوق الإنسان بعد تاريخ من المآسي رهيب بسبب أشكال التسلط على إرادة الأفراد والشعوب، وسلبهم المستمر لحرياتهم جملة واحدة إلى فترات من التاريخ القصير، وفي أمكنة ضيقة من هذا العالم. فنطالع في نصوص ذلك الميثاق بحق أنّ " حقوق الإنسان هي أساس الحرية والكرامة الإنسانية والعدالة والسلام. وخلْف كلّ حق هناك أكثر من مجرد تاريخ (وحاضر في أغلب الأحيان) من القمع وعلى هذا النحو، فإن لكل حق من حقوق الإنسان دورا في بناء إنسانيتنا المشتركة؛ لكن تلازم هذه الحقوق هو ما يجعلنا جميعا بشرا."[1].

ولعلّ حياة الأنبياء ومكتسبات جهودهم ونضالهم هيَ من الفترات القصيرة التي شهدت محاولات متفاوتة في النجاح لاسترداد مقادير من الحرية المسلوبة. نقرأ ذلك في قوله تعالى على لسان إبراهيم (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا)[مريم: 48]، وعلى لسان موسى (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين)[الشعراء: 62]، وعلى لسان عيسى عليه السلام (قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِين)[الشعراء: 62]، وعلى لسان محمد (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين)[البقرة:256]، (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِي)[يونس: 99]).

ورغم جميع ما يقال فإن الفلسفة الوجودية وهي التي حاولت أن تتجاوز بمفهوم الحرية كلّ القيود لم يسعها عند التطبيق غير الاعتراف بالحدود الضرورية نجد ذلك في النص التالي: " يرى سارتر أن حرية الإنسان ينبغي ألا يكون لها حدود، على الرغم من

---

1 – حرية التعبير والإزدراء الديني...مقال ضمن كتاب: الأديان وحرية التعبير. 37.

أن هنالك مواقف محدّدة (حدّية) لا دخل له فيها. مثال ذلك أنه لم يتخيّر مولده، وبيئته وشكلَه، وجنسه وطبقته، وما إلى ذلك من المواقف...إن هذه المواقف مع ذلك لا تنفي الحرية في نظره؛ لأن الإنسان يضفي عليها ما يشاء من معنى ويتقبلها أو يضيق بها." [1]. ولكنه سرعان ما يقرر بضغط الواقع أو قل يصطدم بحقائق الأمور، فيستدرك سارتر أن الحرية عند مقيدة بقيدين: " على الرغم من هذه الحرية شبه المطلقة التي ينادي بها سارتر نجده يذهب في كتابه (الوجودُ والعدم) إلى أنّ هناك قيدين يقيدانها: **القيد الأول:** هو أن الإنسان موجود حر سواء أراد ذلك أم لم يرد، فليس لي كإنسان حرية اختيار ألا أكون حرا...وحتى لو تنصّل الإنسان من الحرية نتيجة لما يصاحبها من إحساس بالمسئولية...فإنّ هذا التنصّل لا ينفي الحرية. **والقيد الثاني:** هو وجود الآخرين لأن حرية الآخرين تحدُّ من حريتي، فأنا أختار الحرية للغير، في الوقت نفسه الذي أختار الحرية لنفسي، ولا أستطيع أن أتخذ من حريتي غاية إلا إذا اتخذت من حرية الآخرين غاية أيضا. فحرية الإنسان الواقعية تتحقق في المجتمع وترتكز على الظروف الخارجية.[2].

وإذا أردنا أن ندلل على واقعية تلك القيود وأنها فعلا ملزمة، فأكثر الدول ادعاء لحرية التعبير وهي أمريكا والغرب عموما، إلا أننا نجد " على الرغم من ذلك كلّه، فإن التاريخ الأمريكي شهد حظر كتاب (الأودية) لجيمس جويس، وكتاب (مدار السرطان)، لهنري ميللر، وكتاب (أوراق من العشب) لوالت هويتمان." [3]. وهي ليست كتبا في الأساس عن ازدراء الأديان والإساءة لرموزها بالضرورة، بل شكلت معارضة لأفكار سائدة تدعمها سياسات تعطي مصالحها الأولوية على كل اعتبار آخر.

1 – الفلسفة الوجودية، عبد الرحمان بدوي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر، ط:01، 1980م) ص: 131.

2 – الفلسفة الوجودية، عبد الرحمان بدوي. ص: 131.

3 – رضا زيادة. حدود حرية الرأي والتعبير في أزمة الرسوم الدنماركية، ضمن: كتاب: الأديان وحرية التعبير. ص: 30.

ولماذا نذهب بعيدا في التقييد الصارم لحرية التعبير في الغرب ومنذ سنين طويلة تقارب القرن ضد جميع ما يعتبر مسا بالشخصية اليهودية، كما في النص التالي:" هذا فضلا عن القوانين التي صدرت في أكثر من دولة أوربية، وأصبحت تستخدم كسلاح من أجل تقييد حرية الرأي والتعبير، كما في القانون الذي يجرم الحديث عن المحارق النازية بحق اليهود في فرنسا وألمانيا، وغالبا ما يستخدم التشهير بمعاداة السامية لمنع الكلام حول ذلك حتى ولو اتصف بالتاريخية والعلمية مع قناعتي بالحساسية الفائقة لهذا الموضوع في السياق التاريخي الأوربي." [1].

لا مجال إذا لاستكثار وضع قيود على حرية تعبير غير مسئولة تتراوح بين غفلة وسذاجة، تورط إعلام حكومي بل ودول في سلوكيات مجانية لبعض النرجسيين من الفنانين...، وبين سلوكيات مغرضة تستفيد من الأوضاع الراهنة لصالح مكاسب سياسية أو فنّية أو اقتصادية...ونحن نرى إلى أي مدى يخضع كلّ من ذكرنا من جميع أفراد وهيئات المجتمع الغربي لهذا الحصار الإعلامي والتعليمي... الخانق بخصوص تناول الشخصية أو المواقف اليهودية. ونحن نقرُّ أنه لولا ذلك لأدى انفلات حرية التعبير إلى مآس لليهود في الغرب وغيره، مثلما يحدثُ أو سيحدث لأقليات أخرى ما لم تتخذ إجراءات مناسبة قد لا تصل بالضرورة إلى حدود (مبدأ معاداة السامية).

وينبغي تكرار طرح القضية كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ولا يمكن أن يجعل شيء فوق كل اعتبار. ففي أعقاب الرسومات المسيئة للرسول عليه السلام في الدانمارك، وبعد زيارة وفد من المثقفين المصريين خصوصا للدولة المذكورة، وزيارة الصحيفة المذمومة، ولقاء الأشخاص الذين طلبت منهم الرسوم الكاريكاتورية، كتب بعض أعضاء الوفد بعد الرجوع إلى القاهرة شهر مارس 2006م ما يلي: " وإذا كان الجدل بشأن التصريحات السياسية ومدى ارتباطها بحرية الرأي والتعبير يبدو واضحا، أو على الأقل قليل الالتباس، ويسهل تحديد الكفة الراجحة المتعلقة بضمان حرية الرأي والتعبير، فإنّ هذا الحق يصبح مصدر نقاش وتساؤل فيما يتعلق بالقضايا ذات الحساسية الخاصة

1 – رضا زيادة. حدود حرية الرأي والتعبير في أزمة الرسوم الدانماركية. ص: 30.

لمجتمع من المجتمعات، والتي غالبا ما تمسُّ استقراره، ولذلك يبدو أصعب سؤال فيما يتعلق بحرية التعبير: هل يظلُّ هذا الحقّ مكفولا في حال التعبير الذي يهدف إلى نشر عدم التسامح مع آراء ومعتقدات الآخرين؟ أو ما يسمّى (تعبير الكراهية)، أي (التعبير الذي يحضُّ على الكراهية)، وهو التعبير الهجومي المبني على العرْق أو اللّون أو الدين أو التفضيل الجنسي."[1].

إن حرية التعبير وإن كانت أساس حقوق الإنسان، " فالممارسة الكاملة للحق في حرية التعبير لا توسع فقط من قاعدة المعرفة، والمشاركة داخل المجتمع، بل توفر أيضا رقابة خارجية على مسؤولية الدولة، الأمر الذي يمنع الفساد الذي لا يزدهر إلا في البيئات المغلقة والسرية."[2]. إلا أنّ ثمة واقعا لا يقبل التجاوز فلنا أن ننظر ونتوسع في التنظير، وننفي أن نأوّل القيود أو الضغوط... لكنّ الأطراف التي تتلقى الإساءة بدورها قد ترتكب نفس الحقّ المدعى من حرية التعبير بل حرية الردّ، مع توقع أن ينقلب ذلك إلى التحريض...وهنا نعود إلى نقطة الصفر، مما يحتم مراجعة المواقف باستمرار، والتفريق بين ما ينفع وما يضر بحرية التعبير، وبين ما لا نفع ولا ضرر فيه غير التطاول والاستهتار المجاني.

- **الدين أحد أشكال الحرية الإنسانية:** قدمنا نصوصا عن الحرية في نصوص الأنبياء، وقد تبعها تطبيق اقتضى من الأنبياء وأتباعهم كثيرا من النّضال والتضحيات مع أن مواقفهم من مخالفيهم سمحت لجميع الأطراف من حرية النقد العلمي، ورفض الدعوة الموجهة بشرط عدم التعسف في منع آخرين من الإيمان بها، وهو أمر منطقي ضرورة أن العقيدة من موضوعات الحرية، لكون الإنسان يبذل جهودا مضنية، ويقدم تضحيات جسيمة في جراء العقيدة التي يختار اعتناقها. وعلى ذلك جرت المواثيق الدولية حيث نصت على " حرية الاعتقاد الديني من أهم الحقوق الإنسانية المستقرة...لا يمكن

---

1 – رضا زيادة. حدود حرية الرأي والتعبير في أزمة الرسوم الدانماركية، ضمن: كتاب: الأديان وحرية التعبير.

2 – حرية التعبير والإزدارء الديني...مقال ضمن كتاب: الأديان وحرية التعبير. 40.

لأي سلطة كانت بأن تفرض عليه عقيدة...على الرغم من أن ممارسة هذه العقيدة مقيّدة بعدّة ضوابط، لاسيما ما تعلّق بالنظام العام والآداب." [1]. ومجرد هذا يعد مكسبا لا بد من حمايته من الاعتداء، بالإساءة والازدراء أو الإكراه... فقد نص القانون الدانماركي مثلا في المادة " 140- كل شخص يسخر أو يستهزئ علنا بأي من العقائد الدينية أو الشعائر التعبدية الخاصة بأي جماعة دينية متواجدة بصورة قانونية داخل البلد، يعرض نفسه للسجن مدة لا تزيد على أربعة أشهر.". ومن حسن الحظ أن الدول الغربية وغيرها كثير من الدول والمنظمات والاتفاقيات قد سبقت إلى تشريع هذه النصوص الرادعة نوعا ما، مما يجعل استفادة المسلمين من وراء تطبيقها يمثل فرصة بل فرصا لوضع حد لهذه الإساءات المتكررة والبالغة بشكل قانوني لا مزايدة فيه.

ونشير أخيرا إلا أن الحرية مفهوم لا يتجزأ، فإذا كانت حرية التعبير لها ما يبررها من جهة تشريعها وحمايتها، فـ" كذلك فإنّ حرية التعبير ضرورية لممارسة الحرية الدينية، والعكسُ صحيح، فإن لم يكن الناسُ أحرارا في إظهار أديانهم، فإنه لا وجود إذن للحق في حرية التعبير."[2].

- **الحدُّ من الحريات الفردية لفائدة المصلحة العامة:** قدمنا أن أكثر المجتمعات تقوم على التنوع الناشئ عن اختلاف الأعراق واللغات والأديان والاتجاهات والقناعات الفكرية، وهذا شيء وجدا قديما وهو مرشح للازدياد والاطراد بشكل كبير مع توسع المواصلات، وكثافة الأقليات داخل جميع الكيانات السياسية تقريبا. وأمام هذا التحدي لم يعد من المقبول تجاوز كل ذلك في التعليم والإعلام ولا في التشريع...وأصبح من مصلحة الدول جميعا الالتزام بالاتفاقيات والمواثيق الدولية، والتشريعات الداخلية التي تجمع ولا تفرّق ، وتحاور ولا تتعصب، تتعايش ولا تقصي.

كما أن مفهوم الحرية عموما أضحى واضحا لدى الجميع مقيدا باعتبارات النظام العام، والآداب والمصالح العليا للمجتمع. وهذا المقدار المتفق عليه تجاوز المكسب

1 - المسؤولية الدولية عن الإساءة للأديان، ، رسالة دكتوراه جامعة الجزائر 2012م. ص: 14.

2 - حرية التعبير والإزدارء الديني...مقال ضمن كتاب: الأديان وحرية التعبير. 39.

الأدبي، باتجاه التشريع الملزم في المواثيق والمعاهدات، بل أخذ مكانه في القوانين الجنائية أمام الاستهتار الذي يقع بقصد أو بغير قصد من كثير من الأفراد خصوصا الشخصيات العامة منهم كرجال الدين، والرؤساء...ومن جهة أخرى فإن الاستنكار الحاصل للإساءة للأديان ورموزها لم يعد قاصرا على أتباع الدين المستهدف بل قامت في وجه ذلك شرائح حقوقية آخذة في التوسع، نظرا لما مثله ذلك من تجاوز للحرية، وانتقاص من شأن العاطفة الدينية؛ مما استدعى الاعتذار العلني من الجهات المتورطة في الإساءة.

ونحن نسوق النصوص التالية من العهد الدولي للحقوق المدنية والسياسية " ربط ممارسة هذه الحقوق بواجبات ومسؤوليات خاصة و على ذلك فإنها قد تخضع لقيود معينة، ولكن فقط بالاستناد إلى نصوص القانون التي تكون ضرورية: **أ**– من أجل احترام حقوق أو سمعة الآخرين. **ب**– من أجل حماية الأمن الوطني أو النّظام العام أو الصحة العامة أو الأخلاق. فالعهد الدولي إذن شرَط ممارسة حرية الرأي والتعبير بضوابط، طالما كانت مجالَ نزاع فيما بين السلطات الثلاث داخل مؤسسات الدولة."[1]. وفي نص أوضح من ذلك مع بين ظرف التقييد المكتسب بعد صراع طويل " بيد أنه يجوز في إطار القانون الدولي، تقييد الحق في حرية التعبير من أجل حماية حقوق الآخرين والنظام العام، من بين أشياء أخرى، بشرط أن يكون التقييد (ضروريا في مجتمع ديمقراطي)، وأن يتمَّ ذلك في إطار القانون."[2]. والتقييد بالضروري في المجتمع الديمقراطي يقطع الطريق على الأنظمة الشمولية والمتخلفة حتى لا تستغل بمناسبة ذلك لأجل التوسع في التضييق في مجال التدين وحرية التعبير..

ومن هذا يتبين جليا ما لهذه الحقوق من قيمة تشريعية وكيف " اهتمت التشريعات الوضعية بتنظيمها، وتحديد ضوابطها على اعتبار أن الإخلال بضوابطها يرتب المسؤولية

1 – رضا زيادة. حدود حرية الرأي والتعبير في أزمة الرسوم الدانماركية، ضمن: كتاب: الأديان وحرية التعبير.

2 – حرية التعبير والإزدارء الديني...مقال ضمن كتاب: الأديان وحرية التعبير. 40.

في مفهومها العام."[1]. إن حرية التدين من الحقوق العامة التي كفلتها الشرائع والاتفاقات الدولية، والإسلام بدوره يكفلُ حرية الاعتقاد ويرتّب عليها الجزاء الأخروي من جهة الإيمان أو الكفر، والجزاء الدنيوي من جهة جريان أحكام الشريعة على من ظاهره الإسلام، وجريان أحكامها أو أحكام غيرها على الكافر بها المقيم بأرضها.

ولا شك أن الموضوع أضحى راسخا أكثر من أي وقت مضى، إنما لا تزال لحظات الانفلات تعكر الاستراحة إلى المكاسب التشريعية، ولعل ذلك راجع إلى التراخي الحاصل في تنفيذ تلك التشريعات، وإيقاع الجزاء المنصوص عليه في حال المخالفة؛ توقيا من أن يتطور التمادي في ذلك إلى اتساع هوامش الكراهية، والتراجع في مستويات التنمية السياسية والاجتماعية خصوصا. ولنا أن نتساءل بدورنا مع المضمون الاستفهامي التالي: " إنّ الامتحان الأكبر الذي تتعرض له حرية التعبير يتعلق بالقدرة على التمييز بين: أين ينتهي حقُّ الإنسان في التعبير عن رأيه بحرية؛ ليدخل في فعل التحريض على الكراهية؟ والفعلُ هنا ليس مرتبطا بممارسة جسدية؛ إذ أنه قد يتجلّى في شكل من أشكال التعبير اللفظي."[2].

وختاما نشارك جميعا في دعم فكرة أن من واجب الدول تقييد حرية التعبير، بقيود مصْلحية دقيقة بعد التوسع في المشاورات لـ" تحظر بالقانون أية دعوة إلى الكراهية القومية أو العنصرية أو الدينية، تشكل تحريضا على التمييز أو العداوة، أو العنف."[3]. وليس في ذلك في نهاية المطاف بعد الحسم والحزم سواء في التشريع أو الإعلام أو التعليم إلا حماية المجتمع الإنساني المعاصر، وتجنيب الأجيال القادمة جميع مقدمات الاقتتال تحت عناوين الكراهية والإقصاء...إن نجاح الأمم في بلوغ هذا الهدف سيمثل

1 – المسؤولية الدولية عن الإساءة للأديان (رسالة دكتوراه، جامعة مولود معمري، الجزائر، 2016م) ص: 14.

2 – رضا زيادة. حدود حرية الرأي والتعبير في أزمة الرسوم الدانماركية، ضمن: كتاب: الأديان وحرية التعبير.

3 – المادة 55 فقرة (ج) من ميثاق الأمم المتحدة.

نقلة نوعية في مجال التعاون والتعايش وبدون تحقيق هذه الخطوة يبقى المصير على كف عفريت كما يقولون يخضع للاستغلال، والابتزاز من جهات متعددة.

خاتمة.

ونخلص سويا بعد هذا العرض الوجيز إلى النتائج التالية:

– أنّ الازدراء والإساءة إلى الأديان موجود في نصوص الكتب السماوية وكلام أتباعها وخصومها.

– أنّ ذلك كان سببا مباشرا لكثير من التوترات والحروب الطويلة المرهقة للجميع.

– أنّ العالم الغربي أدرك منذ ما يزيد عن قرن خطر ذلك ووضع له التشريعات التي تحد منه، ولكن التطبيق كان ضعيفا نسبيا.

– أنّ الإسلام في العصر الحديث شهد أكبر نصيب من الإساءة والازدراء برموزه، وأن تفعيل تلك التشريعات الجاهزة، من شأنه أن يحد من ذلك.

– أن التعليم والإعلام والنضال السياسي ضروري في تجنيب المجتمعات سلبيات هذا الانفلات في حرية التعبير.

– ضرورة مراجعة مواقف المسلمين شعوبا وحكومات من ثقافة " الانفعال " إلى الفعل الحرّ النضالي؛ تجنبا للاستغلال المغرض لردود فعل شعوب العالم الإسلامي.

المصادر والمراجع:

– سيكولوجية الإساءة للأديان والأنبياء، صادق السامرائي (www.arabpsynet.com)

– موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، عبد الوهاب المسيري (shamila).

– حقيقة اليهود، فؤاد بن سيد عبد الرحمان الرفاعي (دار القلم، الكويت، ط:01، 1993م).

- صورة الإسلام في الذات الغربي، هوبرت هيركومر(نهضة مصر، القاهرة، ط:01، 1999م).
- في مواجهة التنصير، محمد الحاج عيسى (دار الإمام مالك، الجزائر، ط:01، 2008م).
- الإسلام والمسيحية، أليكسي جورافسكي (المجلس الوطني للثقافة، الكويت، ط:01، 1996م).
- الحركة الوطنية، بلقاسم سعد الله (دار البصائر، الجزائر، ط:01، 2009م).
- L.E. Duval. Messages de paix(Paris.1962)
- قصة الحضارة، ول ديورانت (دار الجيل، لبنان، ط:01، 1988م).
- مقال: حرية التعبير وازدراء الأديان في القانون الدانماركي (المعهدُ الدانماركي لحقوق الإنسان، 2006م).
- سيكولوجية الإساءة للأديان والأنبياء، صادق السامرائي (www.arabpsynet.com).
- المعجم الفلسفي، إشراف: إبراهيم مدكور (الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط:01، 1983م).
- الفلسفة الوجودية، عبد الرحمان بدوي (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، مصر، ط:01، 1980م).
- المسؤولية الدولية عن الإساءة للأديان، (رسالة دكتوراه، جامعة مولود معمري، الجزائر، 2016م).
- ميثاق الأمم المتحدة.